

رماد الصمت



وأنا أقلب طرفي خلف غيوم القلب، كانت اللحظة تُمطر حبا، وكانت بسمه العمر تقف على عتبات المغادرة. هناك.. حيث ذات ذهولٍ، على مرمى أمل، أطفأتُ حلمي الأخير وأشعلتُ رمادا للصمت حين جاءها من ترضى عشرته. تساقطت من الأفق أحرف الوداع فانهمرت معها مفردات الخوف، وألقي القبض على آخر الأنفاس في رئة الفرح.. حاولتُ أن أبحث عن مساعدة، فلا أحد سوى الصدى يقاسمني الفاجعة. رفعتُ سماعة الهاتف علّني أجد صديقتها تلك، التي كانت تلجأ إلى حضنها كلما اختلفنا.. فردت عليّ أخرى.. سألتها عن شقيقة الروح.. فأجابت: إنها تكرهك حد التطرف..! كنت جالسا على حافة جرف عميق فأحسست بقلبي ينخلع من مكانه، كأنه يهوي في طريقه إلى الارتطام بقاع الجرف. وددت أن أصرخ في وجهها، إلا أنني تماكنت نفسي بعدما شعرت بنبرة صوتها الانتقامية. أخذتُ نفسا عميقا كاد يخنقني، ثم سألتها بصوت متحشج: ولكن، لمَ تكرهني..؟ أجابت: لأنك أنت.. ولأنها صارت له..! حينها شعرت بيد عملاقة ذات أصابع مكسوّة بالصوف انبثقت من أعماق الجرف ومنعت قلبي من السقوط، فهزتني قُشعريرة قوية جعلتني أسألها بصيغة مباشرة: لأنها صارت له.. كان لزاما عليها أن تخلع عقداً ونيف من الوفاء والطُّهر والحب..؟ أجابت بتهكُّم: أرجوك توقف عن الحديث وانكفئ على أوهامك، لا تطلق العنان لحضورك الذي قد يؤدي خارطة ظلها، فتسقط بين يديك مضرجة بالتيه. لقد غادرتك عن قناعة، حين اصطدمت بقدراتك المكبلة بأغلال العجز، وقلبك المسجون خلف قضبان الأحلام الممنوعة، ويديك المرفوعتين إلى سماء الأمل المُحال، فدعها لعالمها

الجديد. ضحكتُ بطريقة مؤلمة جعلتني أشعر بالقناع الآخر للبكاء، ثمّ رميتُ مسامعها بآخر سؤال في جعبتي الفارغة إلا منه: أتحدثين بلسانها، أم إن ما تقولينه هو انعكاس حقيقي لحياتك العامرة بالفشل..؟ أدركت أنّ الأمر أعمق من مجرد مهاتفة لحظية تتوخّى السؤال عن الحبيبة فأجابت: بل أنا أتحدثها.. ناقلة إليك مساحة اللاوجود لحضورك على خارطتها المستقبلية. كانت قصتي العاطفية أمامي، وأنا أطل عليها من على حافة الجرح فشاهدت نوراّ يعبرُ الجرف العميق في اتجاهي، ويد عملاقة تحمله حتى أوصلته إلى صدري، ثمّ عادت أدراجها من دون ضوء. كنت في حاجة إلى أن أهدأ وأن أمسك بخيوط أفكارِي. أخذت علبه الماء البارد الموجودة بجواري وسقيت جوفي، علّ برودته تهدء قلبي المحموم كمّادة رجاء، اعتصمت بالصمت برهة، وهي ما تزال على الهاتف. كدت أصاب بالجنون من شدة ذهولي، مما أسمع من كلمات مُهينة تحاصرني بها تلك الفتاة المضطربة، لولا حدسي الذي جعلني أكتشف أنها تعاني جراحاً عاطفية لم تندمل بعدُ، وأن ما تقوله لا يعنيني في شيء، خصوصاً أنني على يقين أن عشبة القلب، سنبله الشوق، غيمة الحنان، شمس طفولتي الهاربة، لا يمكن لها أن تطارح هذا السقوط العاري، وهي التي أمطرتني بهمسها الحالم وتوّجتني باكاليل الشوق والحنين والعشق على مدار عمر وبعث سنين، إلا أن ما قالته صديقتها كان وقعه صاخباً في مسامعي، ما جعلني أسير بخطاي إليّ، فاراً من الظل إلى هجير المواجه، لكنني لم أقف في مهبط الجرح كثيراً. إذ إنّ العمى العاطفي حجب عني الرؤية والإدراك معاً، فأبرمت معاهدة بيني وبينني تدعو إلى الصمود أمام الأعاصير والنوازل المباغثة. لذلك، عدت مُترعاً بالبحر مثقلاً بالجرح أخاطبها: أو تتحدثين عن البسمة... مازالت شهقة ضوئها تسري في أوردتي مذ استباحني طرفُها ذات أنين؟ يا غادة القهر، تطهري من رجس زيفك بندى ضوئها، ولا تلمزي كينونتي الأولى بما لا تستسغه مداركي. فأنا الذي أسقيتها لحظي منذ أن كانت نبتة، ورسمت من شفق الصباح ظلالها، وغسلت فؤادها بالضوء، وجمعت فيها معادن الدنيا، فصارت لأولؤة الحياة وعقدتها الثمين. لا تقولي إنها تكرهني لأغادرها ملسوفاً بجمر شفتيك ونار لسانك، بل جولي بوجهك العابس على مقربة من أوردتها، ثمّ اسألي عني هناك، فإن لي في كل زاوية مرفأ، وفي كل منحدر ظللاً، وفي كل شريان معلق قطعة ضوء. وإن استطعت فتقدمي خطوةً شطر قلبها النابض، وستجدين الحب الذي صنعه بكلتا يديّ يسبح منفرداً وهو مشعّ بهاء الحضور. غير أنك إن حاولت الولوج إلى حيث أنا، ستحترقين، لأن الضوء الآتي من أقاصيها أكبر من رؤيتك غير المتجانسة مع الحقيقة. لذلك، عليك أن تحلّ بقي ببصرك عالياً لحظة بزغ الفجر، ثمّ أمعني النظر ليستبين الخيط الأبيض من الأسود.. فذاك أنا والليل أنت والنهار حبيبتي، شيء من الصمت يتسرب عبر خيط الهاتف، وإشارة خجول تعلن عن انتهاء المكالمة.

